فلسفة قصَّة(١)

ماتت خديجةُ زوج النَّبيِّ ﷺ ومات عمُّه أبو طالب في عامٍ واحدٍ في السَّنة العاشرة من النُّبوَّة ، فعظُمت المصيبة فيهما عليه ؛ إذ كان عمُّه هذا يمنعه من أذى قريشٍ ، ويقوم دونه ، فلا يخلُصون إليه بمكروهٍ ، وكان أبو طالب من قُريش كالعقيدة السِّياسيَّة : هي بطبيعتها قوةٌ نافذةٌ على قوَّة القبيلة ؛ فمن ثَمَّ كان هو وحده المشكِلةَ النفسيَّةَ المعقَّدةَ ؛ التي تعمل قريش جاهدةً في حلِّها ، وقامت المعركة الإسلاميَّة الأولى بين إرادتهم ، وإرادته ، وهم أمَّةٌ تحكمهُم الكلِمة الاجتماعيَّة التي تَسِير عنهم في القبائل ؛ وتاريخهُم ما يقال في الألسنة من معاني المدح ، والذمِّ ، فيخشَوْن المقالةَ أكثرَ ممَّا يخشَوْن الغارة ، وقد لا يُبالون بالقَتْلَى والجرحى منهم ، ولكنَّهم يبالون بالكلمات المجروحة .

فكان من لَطيف صُنْع الله للإسلام ، وعجيب تدبيره في حماية نبيِّه ﷺ ـ وضْعُ هذه القوة النَّفسيَّة في أوَّل تاريخ النُّبوَّة ، تشتغل بها سخافات قريش ، وتكون عملاً لفراغهم الرُّوحيِّ ، وتُثِير فيهم الإشكال السِّياسيَّ الذي يعطِّلُ قَانونَهم الوحشيَّ إلى أن يتمَّ عملُ الأسباب الخفيَّة ؛ التي تكْسِر هذا القانون ؛ فإنَّ المصنعَ الإلهيَّ لا يُخْرِج أعمالَه التَّامَّة العظيمةَ إلا من أجزاءٍ دقيقةٍ .

أمَّا خديجة زوج النَّبيِّ ﷺ ، فكانت في هذه المِحْنة قلباً مع قلبه العظيم ، وكانت لنفسه كقول (نَعم) للكلمة الصَّادقة التي يقول لها كلُّ الناس (لا) ، وما زالت المرأة الكاملةُ المحبوبةُ هي الَّتي تُعطِي الرَّجلَ ما نقص من معاني الحياة ، وتلدُ له المسرَّات من عواطفها ، كما تَلِدُ من أحشائها ، فالوجودُ يعملُ بها عملين عظيمين : أحدُهما زيادةُ الحياة في الأجسام ، والآخرُ إتمامُ نقْصها في المعاني .

* * *

وبموت أبي طالبٍ ، وخديجةَ ، أُفرِدَ النَّبيُّ ﷺ بجسمه ، وقلبِه ؛ ليتجرَّدَ من الحالة ؛ الَّتي يَغْلِبُ فيها الحسُّ إلى الحالة ؛ الَّتي تَغلب فيها الإرادة ، ثُمَّ ليخرجَ من

---

(١) أنشأها لعدد الهجرة سنة (١٣٥٥هـ) .

أيَّام الاستقرار في أرضه ، إلى الأيَّام المتحرِّكة به في هجرته ؛ ثمَّ لينتهيَ بذلك إلى غاية قوميَّته الصَّغيرة المحدودة ، فيتصلَ من ذلك بأوَّل عالميَّته الكُبرى .

وأراد الله تعالى أن يبدأ هذا الجليلُ العظيمُ من أسمى خِلال الجلال ، والعظَمة ؛ ليكونَ أوَّلُ أمره شهادةً بكماله ، فكانت الحسنة فيه بشهادة السَّيِّئة من قومه ؛ فحِلْمهُ بشهادة رُعُونتهم ، وأناتُه بدليل طَيْشهم ، وحكمتُه ببرهان سفَاهتِهم ؛ وبذلك ظهر الرُّوحانيُّ روحانياً في المادة .

قالوا : فنالتْ منه قريش ، ووَصَلُوا من أذاهُ إلى ما لم يكونوا يصِلُون إليه في حياة عمِّه ، حتَّى نثَرَ بعضُهم الترابَ على رأسه ، كأنَّما يُعلِمونه : أنَّه أهونُ عليهم من أن يكونَ حُرّاً ، فضلاً عن أن يكونَ عزيزاً ، فضلاً عن أن يكون نبيّاً ؛ قالوا : فدخل رسولُ الله ﷺ بيتَه والتُّرابُ على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التُّرابَ ؛ وهي تبكي !

كانت تبكي ؛ إذ لا تعلم أنَّ هذا التُّرابَ على رأس النَّبيِّ العظيم هو شُذوذُ الحياة الأرضيَّة الدَّنيئة في مقابَلة إنسانِها الشَّاذِّ المنفرد . هذه القَبْضَةُ من التُّراب الأرضيِّ قبضةٌ سفيهةٌ ، تحاولُ ردَّ الممالك الإسلاميَّةِ العظيمة أن تَنشأ نشأتَها ، وتعمل عملَها في التاريخ ؛ فهي في مقدارها ، وسخافتِها ، ومحاولتِها كعقل قُريشٍ حينئذٍ في مقداره ، وسخافتِه ، ومحاولتِه .

أمَّا النَّبيُّ ﷺ فقال لبنته : « يا بنيَّة ! لا تبكي ! فإنَّ الله مانعٌ أباك »[1] . حسبَتْ ذلك هَواناً ، وضَيْعةً ، فأعلَمها أنَّ قبضةً من التُّراب لا تَطْمُرُ النَّجم ، وأنَّ هذه الحَثْوَةَ[2] الترابيَّةَ لا تُسمَّى معركةً أثارتْها الخيلُ فجاءت بنتيجةٍ ، وأنَّ ساعةً من الحزن في يومٍ ، لا يُحكَمُ بها على الزَّمن كلِّه ، وأنَّ هذه النَّزوةَ التي تحرَّكت الآن هي حُمْقُ الغباوة : قوَّتُها نهايتُها .

« يا بنيَّة ! لا تبكي ! فإنَّ الله مانعٌ أباك » أي : ليس للنَّبيِّ كبرياء ينالُها النَّاسُ ، أو يَغُضُّون عنها ، فيأتي الدَّمعُ مترجماً عن المعنى الإنسانيِّ النَّاقص مُثبتاً : أنَّه ناقصٌ ؛ إنَّما هي النُّبوَّةُ : قانونُها غيرُ ما اعتادت النَّفس من أفراحٍ ، وأحزانٍ ، وهي النُّبوَّة : تجعل المختارَ لها غيرَ محدودٍ بجسده الضَّعيف ، بل حدودُه الحقائقُ ؛

(١) رواه الحاكم بنحوه (٣/ ١٥٥) .

(٢) « الحثوة » : الغَرْفة من التراب ونحوه .

التي فيها قوَّتُها ؛ فهي في مَنَعَة الواقع ؛ الَّذي لا بدَّ أن يقع ، فلو أمكن أن يُحذَفَ يومٌ من الزَّمن ، أو يؤخَّرَ عن وقته ، أمكن أن يؤخَّر النَّبيُّ ، أو يُحذَف .

« يا بنيةُ ! لا تبكي ! إنَّ الله مانعٌ أباك » . لا والله ! ما يقول هذه الكلمة إلا نبيٌّ ، وَسِعَ التَّاريخَ في نفسه الكبيرة قبل أن يُوجَدَ هذا التَّاريخُ في الدُّنيا ؛ فكلمتُه هي الإيمانُ ، والثِّقةُ ؛ إذ يتكلَّم عن موجودٍ .

ترابٌ ينثره سفيهٌ على رأس النَّبيِّ ؛ **ويحكِ يا حقَارةَ المادة ! إنَّ ارتفاعَك لعنةٌ ، إنَّ ارتفاعَكِ لعنة .**

* * *

قالوا : وخرج رسول الله ﷺ وحده إلى الطَّائف ، يلتمس من ثَقيفٍ النَّصرَ ، والمَنَعَةَ له من قومه ؛ فلمَّا انتهى إلى الطَّائف ؛ عَمدَ إلى نفَرٍ من ثقيفٍ هم يومئذ سادتُهم وأشرافُهم ، فجلس إليهم ، فدعاهم إلى الله ، وكلَّمهم بما جاءهم له من نُصرته ، والقيام معه في الإسلام على من خالفه من قومه ، فلم يفعلوا ، وأغرَوْا به سُفهاءهم ، وعبيدَهم يسبُّونه ، ويصيحون به ، حتَّى اجتمع عليه النَّاسُ وألجؤوه إلى حائط[1] لعُتْبَة بنِ ربيعة ، وشَيبة بنِ ربيعة وهما فيه . ورجع عنه من سفهاء ثَقيف من كان يتبعه ، فعمد ﷺ إلى ظلِّ حَبَلَةٍ[2] من عِنَبٍ ، فجلس فيه ، وابنا ربيعةَ ينظران إليه ويَريان ما لقِي من السُّفهاء .

فلمَّا اطمأنَّ ﷺ في مجلسه ؛ قال : « اللَّهمَّ ! إليكَ أشكو ضعف قوَّتي ، وقلَّةَ حيلتي ، وهواني على النَّاس ؛ يا أرحمَ الرَّاحمين! أنت ربُّ المستَضْعَفِين ، وأنت ربِّي ، إلى مَنْ تكِلُني ؛ إلى بعيدٍ يتجهَّمُني ، أو إلى عدوٍّ ملَّكْتَه أمري ؛ إن لم يكنْ بك عليَّ غضبٌ ؛ فلا أبالي ! ولكن عافيتكَ هي أوسعُ لي . أعوذُ بنور وجهك ؛ الذي أشرقَتْ له الظُّلُمات ، وصَلُحَ عليه أمرُ الدُّنيا والآخرة من أن ينزلَ بي غضبك ، أو يحلَّ عَلَيَّ سخَطُك ، لك العُتْبى حتَّى ترضى ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بك ! »[3] .

* * *

(١) « الحائط » : البستان . وجمعه : حوائط . (ع) .

(٢) « حبلة » : هي القضيب من شجر الأعناب .

(٣) انظره في : مجمع الزوائد (٦/ ٣٥) والسيرة النبوية ؛ لابن هشام (١/ ٤٢٠) وزاد المعاد (٢٨/٣) .

ألا ما أكملَ هذه الإنسانيةَ ؛ الَّتي تثبت أنَّ قوةَ الخُلُق هي درجةٌ أرفعُ من الخلُقِ نفسِه ! فهذا فنُّ الصَّبر ، لا الصَّبرُ فقط ، وفنُّ الْحِلْم ، لا الحِلْمُ وحدَه .

قوة الخُلُق هي التي تجعلُ الرَّجلَ العظيم ثابتاً في مركزِ تاريخه ، لا متقلْقِلاً في تواريخ النَّاس ، محدوداً بعظائم شخصيته الخالدة ، لا بمصالح شخصِه الفاني ، ناظراً في الحياة إلى الوضع الثَّابت للحقيقة لا إلى الوضع المتغيِّر للمنفعة .

وما كان أولئك الأشرافُ ، وسفهاؤُهم وعبيدُهم إلا معانيَ الظُّلم ، والشَّرِّ ، والضَّعف ، تقول للنَّبي العظيم الذي جاء يمحوها ، ويُدِيلُ منها[1] : إنَّنا أشياء ثابتةٌ في البشريَّة .

لم يكن منهم الأشرافُ ، والسُّفهاءُ ، والعبيدُ ، بل كان منهم العَسْف[2] ، والرِّقُّ ، والطَّيش ؛ تَسْخَر ثلاثتُها من نبي العدل ، والحرية ، والعقل ؛ فما تَسْخَرُ إلا مِنْ نفسها .

صغائر الحياة قد أحاطت بمجد الحياة ، لتُثبِتَ الصَّغائرُ : أنَّها الصَّغائر ، وليُثْبتَ المجدُ : أنَّه المجد .

كان الفريقان هما الفكرتين المتعاديتَين أبداً على الأرض ، إحداهما : عِشْ ؛ لتأكلَ ، وتستمتعَ ؛ وإن أَهْلَكْت ؛ والأخرى : عش ؛ لتعملَ ، وتنفعَ النَّاسَ ؛ وإن هَلَكْت .

كانت الأقدارُ تُبادي هذا الرُّوحَ الواسعَ بذلك الرُّوحِ الضَّيِّق ؛ لينطلقَ الواسعُ من مكانه ، ويستقبِلَ الدُّنيا ؛ الَّتي عليه أن يُنشئها . فأولئك الأشرافُ ، والسُّفهاء ، والعبيد إن هم إلا الضِّيقُ ، والرُّكُودُ ، وذلُّ العيش حولَ السَّعةِ الرُّوحيَّةِ ، والسُّمُوِّ ، وطَهارةِ الحياة .

وقف المعنى السَّماويُّ بين معاني الأرض ؛ ولكنَّ نورَ الشمس ينبسطُ على التُّراب ، فلا يُعَفِّرهُ التُّراب ، وما هو بنورٍ يضيء أكثرَ ممَّا هو قوةٌ تعملُ بالْعناصر ؛ التي من طبيعتها أن تُحوِّلَ في العناصر التي مِنْ شأنِهَا أن تتحوَّل .

---

(١) « يديل منها » : أدالنا اللهُ من عدوِّنا : جَعَل الكَرَّةَ لنا عليه ، فغلبناه .

(٢) « العسف » : الظلم .

وكان بين النَّبيِّ ﷺ وبين أولئك المستهزِئين قوةٌ أخرى ، هي القدرةُ التي تعملُ بهذا النَّبي للعالم كلِّه ، وبهذه القدرة لم ينظر النَّبيُّ إلى قريش وصَوْلتهم عليه إلا كما ينظر إلى شيءٍ انقضى ، فكان الجودُ الذي يُحيط به غيرَ موجودٍ ، وكانت حقيقةُ الزَّمن الآتي تجعلُ الزَّمنَ الحاضرَ بلا حقيقة .

وإلى هذه القدرة توجَّهَ النَّبيُّ ﷺ بذلك الدُّعاء البليغ الخالد ، يشكو : أنَّه إنسانٌ فيه الضَّعف ، وقلَّة الحيلة ، فينطِقُ الإنسانيُّ فيه بالشَّطر الأول من الدُّعاء ، يذكر انفرادَه ، وَآثارَ انفراده ، ويتوجَّعُ لما بينه وبين إنسانية قومه ؛ ثُمَّ ينطقُ الرُّوحانيُّ فيه بعد ذلك إلى آخر الدُّعاء متوجِّهاً إلى مصدَرِه الإلهي قائلاً أوَّل ما يقول : إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ ؛ فلا أبالي !

ولعمري لو نطقت الشَّمسُ تدعو الله لما خرجتْ عن هذا المعنى ، ولا زادت على قوله : « أعوذُ بنور وجهك » ؛ تلتمسُ من مصدر النُّور الأزليِّ حياطةَ وجودها الكامل .

* * *

ولقد هَزَؤوا من قبلُ بالمسيح (عليه السَّلام) فقال للسَّاخرين منه : ليس نبيٌّ بلا كرامة إلا في وطنِه ، وفي بيته . وبهذا ردَّ عليهم ردَّ من انسلخَ منهم ، وقال لهم قول مَنْ ليس له حكمٌ فيهم ، وأخذهم بالشَّريعةِ الأدبيَّة لا العملية ؛ إذ كان ـ عليه السلام ـ كالحكمة الطَّائفةِ ، ليست لكلِّ قلبٍ ، ولا لكلِّ عقلٍ ، ولكنَّها لمن أُعِدَّ لها ؛ وشريعتُه أكثرها في التعبير ، وأقلُّها في العمل ، ولم تجئ بالقوَّة العاملة ، فلم يكن بدٌّ من أن تَضَعَ الموعظةَ في مكانِ السَّيف ، وأن تكونَ قائمةً على النَّهي أكثر ممَّا هي قائمةٌ على الأمر ، وأن تكونَ كشمس الشتاء الجميلة : لا تَغْلِي بها الأرض ، وإنَّما عملُها أن تمهِّدَ هذه الأرضَ لفصلٍ آخر .

أمَّا نبيُّنا ﷺ فلم يُجب المستهزئين ؛ إذ كانت القوَّةُ الكامنةُ في بلاد العرب كلِّها كامنةً فيه ، وكان صدرُه العظيمُ يحمل للدُّنيا كلمةً جديدةً لا تقبلُ الدُّنيا أن تعاملَه عليها إلا بطريقتها الحربيَّة ؛ فلم يردَّ وردَّ الشَّاعر الذي يُريد من الكلمة معناها البليغَ ، ولكنَّه سكتَ سكوتَ المشتَرِع ؛ الذي لا يريد من الكلمة إلا عملَها حين يتكلَّم ؛ وكان في سكوته كلامٌ كثيرٌ في فلسفة الإرادة ، والحرِّيَّة ، والتطوُّر ، وأن

لا بدَّ أن يتحوَّلَ القومُ ، وأن لا بدَّ أن يتفطَّرَ هذا الشَّجرُ الأجْرَدُ عن وَرَقٍ جديدٍ أخضرَ ينمو بالحياة .

لم يتسخَّط ، ولم يقلْ شيئاً ، وكان كالصَّانع ؛ الذي لا يردُّ على خطأ الآلة بسخْطٍ ، ولا يأسٍ ، بل بإرسال يده في إصلاحها .

* * *

قالوا : ورأى ابنا ربيعةَ : عُتْبةُ ، وشيبة ما لقي النَّبيُّ ﷺ من السُّفهاء ، فتحركتْ له رَحِمُهُما ، فدَعَوا غلاماً لهما نَصرانيّاً يقال له : عَدَّاس ، فقالا له : خذ قِطْفاً من هذا العنب ، وضعه في ذلك الطَّبق ، ثُمَّ اذهب به إلى ذلك الرَّجل ، فقل له يأكلُ منه . ففعل عدَّاس ، ثمَّ أقبل به حتَّى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ؛ فلمَّا وضَعَ يدَه ؛ قال : « باسم الله » ثمَّ أكل ؛ فنظر عدَّاس إلى وجهه ، ثُمَّ قال : والله ! إنَّ هذا لكلامٌ ما يقوله أهل هذه البلدة .

فقال له رسول الله ﷺ : « ومِن أهلِ أيِّ البلادِ أنت يا عدَّاسُ ! وما دينُك ؟ » .

قال : أنا نَصرانيٌّ ، وأنا رجلٌ من أهل نِينَوَى . فقال له رسولُ الله ﷺ : « من قرية الرَّجل الصالح يُونس بن متَّى ؟ » قال : وما يدريك ما يونسُ بن متى ؟! قال ﷺ : « ذاك أخي : كان نبيّاً ، وأنا نبيٌّ » .

فأكبَّ عدَّاس على رسول الله ﷺ يقبِّل رأسه ، ويديه ، ورجليه[1] .

* * *

يا عجباً لرموز القدَر في هذه القصَّة !

لقد أسرع الخيرُ ، والكرامةُ ، والإجلالُ ، فأقبلتْ تعتذرُ عن الشَّرِّ ، والسَّفاهةِ ، والطيش ، وجاءت القُبُلاتُ بعد كلمات العداوة .

وكان ابنا ربيعةَ من ألدِّ أعداء الإسلام ، وممَّن مشوا إلى أبي طالبٍ عمِّ النَّبيِّ ﷺ من أشراف قريش يسألونه أن يكُفَّه عنهم ، أو يُخَلِّيَ بينهم وبينه ، أو يُنازِلُوه

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (١/ ٢١١ ـ ٢١٢) والطبري في تاريخه (٢/ ٣٤٤ ـ ٣٤٦) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤١٥ ـ ٤١٧) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥) .

وإيَّاه ؛ حتَّى يهلِكَ أحدُ الفريقين ، فانقلبت الغريزةُ الوحشية إلى معناها الإنسانيِّ ؛ الذي جاء به الدِّين ؛ لأنَّ المستقبل الدِّينيَّ للفكر ، لا للغريزة .

وجاءت النَّصرانيَّةُ تعانق الإسلام وتُعِزُّه ؛ **إذِ الدِّينُ الصَّحيحُ من الدِّين الصَّحيحِ كالأخ من أخيه ، غير أنَّ نَسَبَ الإخْوة الدَّمُ ، ونسبَ الأديانِ العقل .**

ثُمَّ أتمَّ القدرُ رمزه في هذه القصَّة ، بقِطْف العنب سائغاً ، عَذْباً ، مملوءاً حَلاوةً ، فباسم الله كان قِطْفُ العنب رمزاً لهذا العنقود الإسلاميِّ العظيم ؛ الذي امتلأ حَبّاً ، كلُّ حبَّةٍ فيه مملكةٌ .

* * *